عودة الخلافة

نهاية مرحلة وبداية أخرى

إعداد قسم الاجتماع والثقافة

مازن شيخاني

مركز عمران للدراسات الاستراتيجية
OMRAN CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

دراسة

مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

مؤسسة بحثية مستقلة ذات دور رائد في البناء العلمي والمعرفي لسوريا دولةً ومجتمعاً وإنساناً، ترقى لتكون مرجعاً لترشيد القرار السياسي ولرسم الاستراتيجيات.

يعمل المركز كمؤسسة بحثية تسعى لأن تكون مرجعاً أساساً ورافداً لصنّاع القرار في سوريا في المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وينتج الدراسات المنهجية المنظّمة التي تساند المسيرة العملية لمؤسسات الدولة والمجتمع، وتدعم آليات اتخاذ القرار، وتحقق التكامل المعلوماتي وترسم خارطة الأولويات.

تعتمد أبحاث المركز على الفهم الدقيق والعميق للواقع، ينتج عنه تحديد الاحتياجات والتطلعات ممّا يمكّن من وضع الخطط التي يحقّق تنفيذها تلك الاحتياجات.

الآراء الواردة في هذه الدراسة لا تعبر بالضرورة عن اتجاهات يتبناها مركز عمران للدراسات الاستراتيجية

الموقع الإلكتروني www.OmranDirasat.org

البريد الإلكتروني info@OmranDirasat.org

جميع الحقوق محفوظة © 2014

تاريخ النشر 26 / 7 / 2014م

عودة الخلافة
نهاية مرحلة وبداية أخرى

إن دراسة أي ظاهرة سياسية أو اجتماعية تستدعي قبل أي حديث جمع المعلومات الكافية والدقيقة عنها، ثم وضع تلك المعلومات في سياق يصلح نموذجاً للتفسير والقراءة، وجمع المعلومات ليس أمراً يسيراً في كل الحالات، فقد يغرق الدارس لموضوع ما في بحر غير متجانس من المعلومات المتراكمة، التي يضرب بعضها بعضاً، ويكذب بعضها بعضاً، ويناقض بعضها الآخر، فضلاً عن غياب المهم منها عن ساحة المعرفة والإدراك، ويرفد تلك المعلومات محاولات سابقة لبناء تصور محكم البنيان عن تلك الظاهرة،

وتتنوع تلك المحاولات وتختلف وتضطرب، وتتناقض، وكثيراً ما تعبر عن فكر المتحدث، أو تعكس السياق الذي يروق له في تحليل الظاهرة، لانتماء فكري، أو مذهبي، أو حزبي، أكثر بكثير من كونها تحليلاً علمياً قريباً من الواقع قدر المستطاع، وتختلط المعلومات بالتحليل والحقيقة بالأمنيات، فيزداد المشهد تعقيداً وغموضاً.

ولعل ما يساعد الدارس لمسألة كهذه أن يحاول البحث ليس فقط عن المعلومات وصحتها، بل يعكف على توزيعها على خارطة إدراكية، ويسعى لربطها بخيوط معرفية ترجع بها إلى قواعد تصلح مداداً لنموذج للتفسير، محيط بكل أبعاد الظاهرة قدر الإمكان.

أحببت أن أجعل هذه المقدمة بين يدي الحديث عن إعلان دولة الخلافة في العراق والشام، هذه الدولة التي ملأ الحديث عنها الدنيا، وشغلت الناس ما بين مبايع أو معارض أو محلل أو متابع. والحديث عن إعلان الدولة الإسلامية في العراق والشام لدولة الخلاقة، ومبايعة البغدادي أميراً للمؤمنين، ودعوة الناس إلى مبايعته تحقيقاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام مسلم (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية). وها هي الخلافة قد أعلنت، والأمير قد بويع. ومكن للمسلمين في الأرض.

لا يمكن الحديث عن ذلك كله دون وضع ما حصل في سياقه التاريخي القريب والبعيد، وأيضاً في تعبيره عن مسألة تمس التراث الفقهي في فلسفته التأصيلية للسياسة الشرعية المبسوطة في أدبيات الفقه الإسلامي. مع التحرز المتأني والبصير من الوقوع في شباك التفاصيل اليومية، والتحليلات المتلاحقة، والمعلومات المجتزئة، أو الارتهان لمشاريع سياسية، أو ثقافية، أو الانحياز المفرط لأجندات تكشف عن مكنون غاياتها، دون عناء يذكر.

إن ما يحدث في سورية مشهد غير مستقر، هو أقرب للفوضى من أي شيء آخر، وملامح هذه الفوضى يمكن إيجازها بما يلي:

1. سقوط الدولة في مناطق واسعة في سورية، مما أدى إلى حالة فراغ كلي، لم تستطع الكتائب المسلحة أن تملأه فانتشرت الفوضى، وطفت على السطح كل تناقضات المجتمع، وانتشرت أعمال اللصوصية، والاعتداء على المال

الخاص والعام، وغابت معظم الخدمات الأساسية الضرورية، وانزوى كل فصيل عسكري بمنطقة سيطرته، وأنشأ فيها محاكمه الشرعية، وأسقط حكم القضاء بحجة علمانيته، وألزم الناس عند الخلاف بالاحتكام إلى الهيئات الشرعية فصارت المناطق المحررة أقرب ما تكون إلى تجمع إمارات إسلامية غير معلنة، كثيراً ما تكون الكلمة فيها لأمراء وقيادات غير سورية، وكذلك كانتونات لأمراء حرب هم أقرب إلى اللصوص منهم إلى الثوار.

2. **مسلسل الاتحاد والانفصال المتكرر للكتائب الإسلامية، فقد غلب على أكثر الكتائب شهرة، وأكبرها عدداً، التزامهم بسنة متبعة، لم يحيدوا عنها منذ أول تجمع أعلن، إلى آخر جبهة هشة**، فهم ما إن يبشروا السوريين بتوحيد الجهود، ورص الصفوف، طاعة لله تعالى، ونزولاً عند أمر رسوله صلى الله عليه وسلم، حتى يصدموا الناس، ولما ينتهوا بعد من تناقل أخبار الاتحاد، حتى يسارعوا لتصحيح النقل بأخبار انفراط عقد الجماعة. وزد على هذا المسلسل حلقات إضافية من ظواهر الانشقاقات التي لم يسلم منها فصيل. ولهذا المسلسل أسبابه الموضوعية، من ادعاء صفاء المورد، ووضوح الراية، والاعتقاد السليم، والمنهج القويم، وارتفاع نسبة الشك والريبة، والاتهام بالعمالة بين الفصائل، والحديث عن ثنائية المجاهدين والصحوات، مما زاد من حدة التشظي والفرقة، بالإضافة إلى الدور السلبي لجانب مهم من التمويل (الرسمي وغير الرسمي) في تفتيت الصفوف تبعاً للأجندات المختلفة.

3. غياب الفكر السياسي عن الساحة الجهادية والسياسية، والافتقار للمعرفة التاريخية للتجارب الإسلامية منها وغير الإسلامية، فمعظم قادة الكتائب هم من محدودي الثقافة السياسية والاجتماعية، ويغلب على المعارضة السياسية الضحالة عند بعضهم، والانتماء الحزبي والمصالح الشخصية عند آخرين، إلا ثلة قليلة، لا تشكل الوزن الأكبر في المعارضة. **مع غياب واضح لرؤية حقيقية وليست متوهمة لمآلات الثورة، سياسياً وعسكرياً واجتماعياً ودينياً وتحديداً عند المقاتلين، والأخطر من ذلك عدم الاكتراث بالثمن المترتب على غياب الرؤية.**

4. ارتهان طيف من الكتائب للمشاريع الوهمية التي أفرزها فكر الأزمة، وجحيم المعتقلات. وإن كانت هذه المشاريع لا تحمل أي فرصة لنجاحها مهما طال زمن الحرب، بل على العكس تصبح فرصة نجاحها ضرباً من الوهم والخيال.

5. حضور جبهة النصرة في المشهد السوري، بتنسيق وتخطيط مع دولة الإسلامية في العراق، ومبايعتها للظواهري، وما يحمله ذلك من تداعيات خطيرة، سيعاني منها المجتمع السوري ربما لسنوات.

6. الموقف الإقليمي والدولي من الثورة السورية، وتشابك وتضارب المصالح، وخروج مساحات كبيرة من المشهد عن السيطرة، وتبدل المواقف، وخوض محاور دولية صراعها على أرض سورية، غير عابئين بالثمن الإنساني الباهظ الذي يدفعه الشعب السوري الثائر على الاستبداد، وعجز كل المنظمات الدولية عن وقف آلة الموت التي تحصد آلاف الأبرياء كل شهر.

7. مشاركة ميليشيات الموت العراقية إلى جانب النظام، وكذلك الذراع الإيراني في لبنان (حزب الله) مشاركة حظيت بدعم كبير من دولة إيران، وما كان لهم من دور في حماية النظام من السقوط.

8. ضم البغدادي الشام إلى دولته، معلناً ولادة الدولة الإسلامية في العراق والشام، وبداية مرحلة صراع بين هذه الدولة وجبهة النصرة، وكذلك الكتائب الإسلامية، والجيش الحر. والثورة السورية تمر في وضع صعب سواء من الناحية العسكرية أو السياسية.

كل ما سبق ملامح للفوضى التي عمت المشهد السوري والذي زاد منها سقوط الموصل، وبعض المناطق الأخرى في العراق بيد دولة البغدادي، وفصائل مسلحة أخرى. ودخول العراق في مرحلة أخرى من الفوضى التي كان يعاني منها أصلاً منذ مدة، ثم يأتي إعلان الخلافة تتويجاً لهذه الفوضى المستعرة في العراق وسورية.

ومن الإنصاف الاعتراف أنه ليس من السهولة بمكان تركيب صورة دقيقة عن القاعدة وإعلان الخلافة، اعتماداً على المعلومات المتداولة، أو الوقوع ضحية الغرق في التفاصيل المتلاحقة، أو التقارير التي تتسرب بقصد تحويل الانتباه، سعياً وراء اعتماد قراءة بعينها. **فنحن بحاجة كما سبق الحديث عنه في المقدمة إلى رسم خارطة إدراكية، نضع المعلومات في مواضعها، مستحضرين ما استطعنا أدوات للتحليل، لعلنا نوفق في الفهم، ونصيب في تحليلنا قدر المستطاع.**

لقد سبق إعلان الخلافة مخاض تاريخي، شهد ولادة نوع خاص من الفكر الجهادي، كانت أفغانستان هي أرض هذه الولادة، ولأفغانستان أهمية خاصة ونحن نتحدث عن خلافة البغدادي، فأفغانستان هي الحاضن الجغرافي لتنظيم القاعدة وفيها نمت بذوره، وعلى أرضها تطورت أفكار الجهاد العالمي، جهاد اقتصر في مراحله الأولى على مقارعة الاحتلال الروسي، بأجناد جاءت من معظم الدول الإسلامية، وهذه كانت ظاهرة جديدة في ثقافة الجهاد على صعيد الممارسة، وإن كانت لها أدبياتها في وجدان المسلمين، ولم يكن لدى أمريكا ومن هم في فلكها مشكلة في هذا التدفق للمجاهدين، بل على العكس قدمت أمريكا وحلفاؤها كل التسهيلات الممكنة لهذا التدفق، طالما هو منصب في مصلحتها في سياق حربها ضد الاتحاد السوفياتي. ولا أتوقع أن أحداً كان يعلم أن أفغانستان بما تعنيه، وما تحمله من معطيات، ستكون بيئة مناسبة جداً لولادة ثقافة جهادية خاصة، تختلف عن كل ما سبقها من تجارب، وذلك لتوفر عدة عوامل موضوعية كان لها أثر كبير في بنية ثقافة القاعدة، فطبيعة أفغانستان الجغرافية القاسية، لوافد غريب وفد إليها في ظل حرب ضروس، يواجه فيها شعب بسيط وفقير جيشاً مدججاً بأعتى أنواع السلاح، ويعاني من مأساة إنسانية مرعبة سببها الاحتلال الروسي، مئات الآلاف من الشهداء، عشرات الآلاف من حوادث انتهاك أعراض النساء، بطرق مذلة يندى لها جبين الإنسانية، أعداد لا تحصى من المعاقين، حدث ولا حرج عن الجرائم والانتهاكات التي ارتكبها الروس في حق الشعب الأفغاني، أمة بأكملها تتعرض للإبادة في عصر حقوق الإنسان، والعالم الإسلامي بنخبه وحكامه يغط في نوم عميق، كأنه يعيش في كوكب آخر، ما خلا شباباً هم أصدق الناس لهجة، وأوفرهم عزيمة، وأكثرهم وفاء لما يعتقدون، سمعوا دعوة أطلقها شيخ من قلب المأساة ، وجدت لها صدى في قلوبهم، فتداعوا من أصقاع الأرض، ليقفوا مع إخوانهم في الدين، تاركين وراءهم كل شيء، بلادهم الناعمة، التي يغلب عليها العيش الرغيد، ليقفوا على وضع كارثي، يفوق كل وصف، وتهيأ لهم من يعد لهم معسكرات للتدريب، وجمعت لهم أرض الحرب المستعرة هناك تجارب إسلامية متنوعة، ودارت بينهم حوارات وحوارات، وتوفر لهم تبادل للخبرات المتنوعة.

وتمضي السنوات، ويخرج الروس من أفغانستان، ويمنى مشروعها بالهزيمة النكراء، وصولاً إلى انهيار الاتحاد السوفياتي، والذي يرجعه المجاهدون لكسبهم وجهادهم، وهذا سيكون له أثر كبير في نمط تفكيرهم، واستخفافهم بكل قوى الأرض، وإسقاطهم لمنظومة توازن القوى، ومفهومهم للإعداد في معاركهم التي سيفجرونها لاحقاً. ثم ما دار من صراع بين أجنحة الجهاد هناك، إلى أن اكتسحت طالبان المشهد، وسيطرت على معظم أفغانستان. ثم إعلان طالبان إمارة أفغانستان الإسلامية، ومبايعة ملا عمر أميراً للمؤمنين.

كل ما سبق من حديث عن أفغانستان وما حصل فيها، كان أشبه ما يكون بكائن فكري وثقافي تكونت في رحمه ثقافة القاعدة، جنين وليد نهشته كل سهام الأرض بعد أن انتهى دوره في أفغانستان، وجد نفسه غريباً عن محيطه، فالشباب العائد من الجهاد، لفظته حكوماته، وصار ملاحقاً في كل مكان، حتى مجتمعه بدا غريباً لا ينسجم معه، وصار العالم غير العالم، وصارت الدنيا غير الدنيا، عالم تعيث فيه قوى الاستكبار فساداً في الأرض، استبداد ينشب مخالبه في أوصال المجتمع، نخب فكرية وثقافية ودينية تسند الطغاة بالشرعية، وإعلام يغيب الناس عن واقعهم المزري، واحتلال صهيوني يفتك بالفلسطينيين، ويسنده في عدوانه العالم الحر، مجتمع دولي يكافئ الظالم، ويحاسب الضحية. سجون ومعتقلات تغص بالإسلاميين، سفلة القوم يتربعون على عروش الحكم، وتاريخ زاخر بالهزائم المتتابعة، وإعلام يصدع الرؤوس بانتصارات تاريخية كاذبة، **وغاية القول أمة بلا مشروع، تحكم فيها شذاذ الآفاق وراحوا يعبثون بمصائر الناس بلا حساب أو رقيب. لحظة تاريخية فارغة، يملؤها من يشاء بما يشاء.**

هذا هو العالم الذي عاد إليه ما اصطلح على تسميتهم بالعرب الأفغان، وهو اصطلاح موفق له دلالات هامة، فالعائد من أفغانستان يحمل في وجدانه هويتين، الهوية العربية الإسلامية، والتي تعني لصاحبها إحساسه بالمسؤولية تجاه العالم الإسلامي، ومرد هذا الإحساس أن القرآن عربي، وأن أول من حمل هذا الدين للعالم هم العرب، وكونه عربياً فهو المقدم على غيره في فهم الإسلام وتشريعاته، وها هو قدره كعربي يضعه أمام مسؤوليته القدرية في إنقاذ العالم من براثن الكفر العالمي، والاستبداد الكوني الذي تجسده أمريكا ومعها الغرب، وحلفاؤهم في العالم. وهويته الثانية تكونت في أفغانستان، **فالعائد من أفغانستان عاد بنفسية محارب أسطوري، يعيش نشوة النصر على قوة عظمى**، يحمل في صدره كراهية لمجتمعات متخاذلة، رضيت بالذل، وهانت عليها كرامتها، وسيطر عليه نفور عن واقعه، اختلط بحالة ثأرية، هو عائد من عالم له سحره الخاص، فقد خاض فيه مغامرات كتلك التي نقرأ عنها في كتب الخيال، لكنها في حقيقتها واقع ليس بالخيال، **هذه هي شخصية العربي الأفغاني العائد من أسطورة أفغانستان وعالمها الساحر، لم يعد معدنه من معادن الناس، ولم يعد العالم عالماً يصلح له، ولا لغة الناس هي لغته، ولا أحلام الناس هي أحلامه، فعزم على هدم كل شيء، ليبني على أنقاضه عالمه الخاص.**

وحتى تكتمل الصورة في فهم الفكر الجهادي العالمي وما أطلق عليه بالسلفية الجهادية لابد من الحديث عن ظاهرة حري بنا وحقيق أن تأخذ حظها ونصيبها من البحث والدراسة، لأنها تتحدث عن مكون أصيل للسلفية الجهادية سيكون له دوره الهام في رسم سياساتها، وأعني بذلك الحديث عن ظاهرة الغلو، حديث بعيد كل البعد عن الوقوع في شباك التحليل الأمني دون استبعاده، أو الارتهان لغرض سياسي مع تقديره، أو الانقياد لانتماء مذهبي مع تفهمه، أو الانحياز لهوى حزبي مع

استيعابه. **حديث يستحضر التاريخ الثقافي والفقهي والفكري والسياسي للأمة، ولا يقع في شرك المرغوب والمأمول في تحليل يرضي صاحبه ويدغدغ عواطفه، أو ينقل صاحبه إلى عالم من الوهم المريح الذي يرفع عن كاهله دندنة العتاب والمسؤولية.**

وإن دراسة هذه مساحتها لا يمكن أن تحتويها هذه الورقة المتواضعة، لذلك سأفرد فيها بعض الجوانب البسيطة هي أقرب ما تكون إلى التنبيه إلى طريقة فهم هذه الظاهرة، وعدم الغرق في بحر الإعلام المتلاطمة أمواجه، الذي ما إن تأخذك موجة لتستقر على رأي، حتى تطيح بك أخرى لتستقر على رأي آخر هو نقيض الأول، وهكذا دواليك.

إن الحديث عن الغلو حديث ذو شجون، فهو حديث مليء بذكريات مؤلمة، يتمنى المرء لو أن النسيان احتواها ولم يعد لها وجود. ولا يخفى على من درس التاريخ الإسلامي أن ظاهرة الغلو ليست نبتة قريبة العهد، بل إن جذور هذه الظاهرة تعود إلى صدر الإسلام، في قصة ذي الخويصرة مع الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: "ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل".

فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟

فقال: "دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه -وهو قدحه -فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدرد، ويخرجون على حين فرقة من الناس".

لم يكن لذي الخويصرة في صدر الإسلام حزب أو جماعة، بل كان رجلاً يضم في صدره مرجلاً للغلو، كانت كلمته التي قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم نفثة خبيثة ضاق بها صدره فنفثها، **وكانت تلك اللحظة لحظة ميلاد فكرة مريضة تقتلها القلوب السليمة، وتمحيها الصدور التقية، لكنها وجدت طريقها إلى صدور مظلمة، قد جعل الله على قلوبها أقفالاً، وأسدل على بصيرتها أغلالاً، فولدت الكلمة فكرة، وشبت مع تداول الأيام، واستوى عودها فغالت، واستغلظ على سوقه بنيانها، فعادت منه بالموت مظللاً حياة الأبرياء لتصبح ديناً وثقافة.**

حمل هذا الدين وعاش تلك الثقافة بعد سنين قليلة خوارج صدر الإسلام، وكان باكورة فتحهم وجهادهم قرباناً إلى الله قتل الإمام علي رضي الله عنه، وقتل الآمنين وبقر بطون النساء. والمستعرض للتاريخ الفقهي بغرض البحث عن جذور الغلو سيجد في صفحته البيضاء خيوطاً سوداء يشد بعضها بعضاً، ويأرز بعضها إلى بعض، تلك الخيوط كانت أشبه بالماء الذي عزز من فرص حياة الغلو وانتعاشه، ففي زاوية من هذا التاريخ سيجد المستعرض حنابلة بغداد، وفي زاوية أخرى سيجد استلاباً لأمر الناس تحت حد السيوف وبريقها، عنوانه إمارة التغلب.

وهناك حقيقة يجب الاعتراف بها، فلم يعد في القوس منزع لنغض الطرف عنها، وهي دور وجه من وجوه السلفية أصيل لديها، ويحتل موقعاً راسخاً في بنيانها، دور كان له نصيب في تغذية الغلو، وإن كان غلب عليه الطابع العلمي من استسهال

التكفير، والحديث المسترسل عن المكفرات، ورمي من يرونه مخالفاً لمنهجهم بالتلبس بالكفر، وإن لم يكفر حتى صار الكلام في الأمر كأنه الأصل في الدعوة إلى الله الحق سبحانه وتعالى، وأصاب الكثيرين من الإخوة السلفيين ولع بكتب تتحدث عن المكفرات، وزاد الأمر تعقيداً اعتمادهم لنهج يصعب أن تضعه تحت مظلة الرفق والرحمة بالناس، ونحن نستحضر قول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وأشبه دورهم دور علماء الجرح والتعديل في تصنيفهم للرواة، والذي كان دوراً علمياً رائداً، ليحوله الإخوة إلى تصنيف يسم المسلمين بالإيمان أو الكفر تبعاً لما يرونه ويعتمدونه، وأذكر شيخاً منهم كان درسه يقتصر على ذلك، فقد كان يجتمع حوله طلابه ليسألوه عن أعيان من الناس، فيقول هذا مؤمن صحيح الإيمان، وهذا مبتدع لا تجوز الصلاة خلفه، وهذا فاسق مضيع للدين، ولا ينسى الشيخ أن يختم كلامه بالحمدلة، كأن يقول عن شخص سئل عنه كافر ولله الحمد. لا أزعم أن كل من اتبع المدرسة السلفية هو كذلك، ففي هذا ظلم كبير، فكثير منهم كان تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم في رحمته ورفقه بالناس، دون تضييع لحق، أو استهانة بشرع، ولكنني أشير إلى المناخ العام الذي لا يخفى على كل متابع.

إن الغلو فلسفة لها أصول ومبادئ تقوم عليها، وقد تطورت هذه الفلسفة عبر مراحل زمنية متتابعة، لكل مرحلة منها سياقها التاريخي، وسمتها الاجتماعي، ونهجها السياسي، وقد لعبت تلك المراحل دورها في حبك نسيج تلك الفلسفة، حتى لكأنك تقرأ تاريخ تلك المراحل ونمطها الثقافي في لون ذلك النسيج، وتتلمس طبيعتها في كل خيط من خيوطه الناظمة.

وإن لهذه الفلسفة رؤية وتصوراً للعالم، حملت في رحمها جنيناً خديجاً، ما إن تنفس أولى نسمات الحياة حتى امتلك مشروعاً، وشرع لمشروعه شرعة، وأصّل له منهاجاً، وقعّد له قواعد، وأسس له بنياناً، حتى إن العارف بالغلو وأهله، والناظر في أمرهم، المتتبع لأحوالهم، ليدرك أن لهم لغة لها جرس مفرداتها، وسبك عباراتها، ولهم سلوك غير السلوك، وحراك غير الحراك، وإدراك غير الإدراك.

وصار لفلسفة الغلو فقه راسم لكل حراك، يستمد الكثير من قوته من فقه الأمة الذي شرع للتغلب، مع سلامة النية وطهر القصد لفقهاء الأمة، ونهج في المسكوت عنه مخافة الفتنة، صدر الفتنة مضاعفة عبر القرون، وزاد من أوارها ولهيبها.

وهناك قضية يجب التنويه إليها على درجة كبيرة من الأهمية، وهي أن القاعدة أو التيار الجهادي العالمي، أو ما يدعى بالسلفية الجهادية، قد جمع أيضاً باسمه مركبين، المركب الأول وهي سلفيته الخاصة التي أخذت عن السلفية المعهودة أموراً ونبذت أموراً، فقد أخذت عنها أصول التوحيد، والكثير من فقهها، وطريقتها التأصيلية، ونبذت موقفها من الحكومات واعتبار الحكام ولاة أمر يحرم الخروج عليهم، بل أصدرت فتاوى بتكفير الأمراء والحكام، ووصفت رموز السلفية العلمية بشيوخ السلاطين، وأنهم باعوا دينهم بدنيا الحكام. ومزجت السلفية الجهادية سلفيتها الخاصة بثقافتها الجهادية التي ولدت في أفغانستان، فكان لها فلسفتها السلفية الخاصة، وطورت لنفسها مشرعاً إسلامياً خاصاً وجد الغلو له في أركانه مكانة راسخة.

ويعاني تيار السلفية الجهادية من مشكلة بنيوية وجوهرية، وهي مشكلة متعددة الوجوه، سنستعرض بعضها بإيجاز:

الوجه الأول: هو في نموذج التدين الذي تبنته السلفية الجهادية سواء على مستوى الفكرة أو السلوك، وهو نموذج له جذوره الضاربة في البنيان الفقهي الإسلامي، والذي يبدو واضحاً في الجدال حول آية السيف، ونسخها لمعظم آيات القرآن الكريم، **هذه الآيات التي تؤصل لمنهج مغاير للسلفية الجهادية في العمل الإسلامي، منهج يراعي البعد النفسي والاجتماعي للإنسان، فضلاً على استحضاره سنن التغيير، وقوانين العمران البشري، واستقراء التاريخ**، منهج ترى فيه السلفية الجهادية انحرافاً عن الشريعة، وأصول الدين، ضاربة عرض الحائط بكل القوانين والسنن والتجارب والتاريخ. فمنهج السلفية الجهادية يعتمد على قانون القوة وفرض الأمر بالسلاح، دون أي اعتبار لموازين القوى، أو الظروف الموضوعية، أو حتى التمكن في الأرض، **وهذا في حقيقة الأمر يعكس أزمة عميقة في التراث الفقهي لا يظهر خطرها طالما بقيت حبيسة المناظرات والكتب، لكن لها تداعيات المدمرة عندما تخرج إلى عالم الواقع.**

الوجه الثاني: هو أن هذا التيار يواجه أسئلة العصر الكبرى، وقضاياه السياسية والاجتماعية والاقتصادية بعقل مكبل بقيود الماضي، قيود ضيقت عليه سبل الفهم والإدراك، ويعتمد أدوات للتفسير والقراءة تعاني من العطالة والقصور الذاتي، فهو في تصوره لشكل الدولة لا يمت إلى العصر بصلة، سواء على مستوى المفهوم، أو مفردات الدولة الحديثة، فليس في قاموس مفاهيم الدولة ومفرداتها عند هذا التيار مفهوم المواطنة، أو الحدود، أو القضاء المقنن الموحد، أو العمل البرلماني، أو فصل السلطات، أو شكل واضح لتداول السلطة، أو تحديد زمن الولاية أو حق كل مواطن في انتخاب حكامه، بل يقتصر الأمر على ثلة قليلة من أهل الحل والعقد لا تعرفهم ولا يعرفونك، وليس لك الحق أصلاً في أن تعرفهم، ناهيك عن إلغاء كامل لدور النساء، فلايحق لهن في أن يكون لهن صوت أو اختيار. **إن أكثر ما يصدق على شكل الدولة عند السلفية الجهادية أن تشبهه بعالم افتراضي، عالم يعيش وحده، هو عالم خارج على سياق العلاقات الدولية، ومتمرد ورافض ومحارب لكل المواثق والعهود الدولية، بل يزيد على ذلك باعتباركل المفاهيم والمفردات السابقة كفر صريح يوجب حد الردة.** وما يصدق في الحديث عن السياسة يصدق في الاجتماع والاقتصاد.

الوجه الثالث: هذا الوجه لمشكلة السلفية الجهادية هي وقوعهم في فلك الفوضى الخلاقة التي ابتدعها المكر الأمريكي وجعل منها سياسة متبعة في مناطق نفوذه التي يخوض فيها حربه على الإرهاب، أو في الادعاء الصفيق للساسة الأمريكان في إسقاط الدكتاتوريات ونشر الديمقراطية. لقد قدمت السلفية الجهادية خدمة كبيرة للمشروع الأمريكي في طريقة حربها لأمريكا، أو لوكلائها في المنطقة. لقد دمرت الولايات المتحدة الدولة ومؤسساتها في العراق، ولم تسقط نظام صدام حسين فقط، بل تركت مكانه بديلاً ضعيفاً وعاجزاً، لم يستطع لعقد من الزمان تقريباً من أن يملأ الفراغ، وانتشرت الفوضى في العراق، وظهرت على السطح كل تناقضات المجتمع وعيوبه وأمراضه، وقد كان للسلفية الجهادية القدح المعلى في نشر وترسيخ الفوضى الخلاقة في حربها التي أخذت بعداً طائفياً، حرب لم يسلم منها أحد إلا من رحم الله، فقد انخرط البيت السني والبيت الشيعي في هذه الحرب، ولكل بيت أسبابه وتبريراته، فصار الكل ضحية هذه الفوضى، وهو في الوقت نفسه مشارك في ترسيخها، ومساهم أصيل في صناعة الموت في العراق.

طبعاً لا نغفل هنا دور الاستبداد والقهر، ومعاناة الفقر، وندرة الخدمات، التي وقع ضحيتها الشعب العراقي. وما يصدق على العراق يصدق على أفغانستان، وإلى حد كبير أيضاً في سورية الجريحة.

وتنظيم القاعدة اعتمد سياسة جديدة في مشروعه الجهادي، يعبر عنها أصدق تعبير إعلان أسامة بن لادن وأيمن الظواهري عن الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين، والتي تشير إلى خلاصة تجربتها الفكرية والجهادية، وإن كان تنظيم القاعدة اعتمد هذا النهج حتى قبل إعلان الجبهة العالمية، وذلك في اليمن والسعودية وغيرهما، لكنه اتخذ أبعاداً تنظيمية أعمق مع إعلان الجبهة، وما تبع ذلك من هجمات مدريد ولندن وغيرها، سياسة تنم عن الفلسفة الجهادية لهذا التنظيم والتي يمكن تلخيصها في نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى متعلقة بالعامل الجغرافي: هي عدم سعي التنظيم للسيطرة على بقعة جغرافية بعينها، يبني عليها دولة إسلامية، يعتبرها منطلقاً لحرب يسعى من خلالها لإعادة سلسلة الفتح الإسلامي لكل البقعة الجغرافية لدولة الخلافة المعروفة تاريخياً، كما هي الصورة الذهنية الراسخة للفتح الإسلامي في أذهان المسلمين. كما كانت فكرة العمل الإسلامي لدى الحركات الإسلامية الكلاسيكية، التي تهدف إلى إسقاط نظام الحكم في بلادها، ومن ثم إعلان الدولة الإسلامية، والتمكين لها في الأرض، من غير أي نشاط جهادي لها يذكر خارج حدود الجغرافيا. وموضع آخر مرتبط بالجغرافيا هو أن المنتسبين للتنظيم ليس لهم انتماء وطني، كما هي العادة في الجماعات الإسلامية. بل هو تنظيم عابر للحدود والقوميات.

والنقطة الثانية هي فتح حرب شاملة ليس مع الحكومات المحلية، ومؤسساتها الأمنية والعسكرية، كل فرع في موقعه بل هي حرب مع الذي اتخذته القاعدة عدواً، وهو العدو الصليبي اليهودي الولايات المتحدة والغرب وحلفاؤهم في المنطقة، في كل بقعة من بقاع الأرض، حيثما وجد العدو، أو وجدت مصالحه، فلم يعد المقصود من الجهاد إسقاط نظام بعينه، على غرار الحركات الإسلامية التي خاضت معارك مع قوى الأمن والجيش الوطني، كما في مصر وسورية على سبيل المثال، في محاولة منها لإسقاط الأنظمة، جهاد لم يحمل في طياته أي مسعى لشن حرب مفتوحة مع العالم، أو كان في منظوره تجاوز الحدود الوطنية، وهذا بناء على اعتقاد منظري القاعدة أن الحرب على أي نظام استبدادي، من دون الحرب على دول الاستكبار العالمي هي حرب من غير طائل، وأشبه ما تكون بضرب ذنب الأفعى وترك رأسها، وأن الأصل في الجهاد قطع الرأس، ومن ثم سيموت الذنب تباعاً، وأن هذا الأمر مستفاد من التجارب السابقة للحركات الإسلامية في صراعها مع الاستبداد المحلي، هذا الاستبداد الذي قدمت له أمريكا والغرب كل أسباب الوجود والحياة. بل لابد من شن حرب شاملة على الصليبية واليهودية وحلفائهم حيثما كانوا، دون اعتراف بحدود، أو مراعاة لتبعات هذه الحرب، سينتج عنها كما اعتقد منظرو هذا النهج سقوط الحكومات الموالية للغرب واستبدالها بالدولة الإسلامية. وهذا كان تطوراً ملحوظاً في فقه الجهاد عند الجهاديين، كانت حاضنته بالطبع أفغانستان وكانت مادته هم الأفغان العرب، وقد تبنى هذا النموذج من الحرب تنظيمات عدة التحقت بالقيادة العالمية للجهاد، وتمت مبايعة قيادة التنظيم، فصار للقاعدة وجود في عدة مناطق في العالم، وعندها خلايا نائمة منتشرة حتى في أوروبا وأمريكا، ويدخل في هذا السياق عمليات ضرب المدمرة كول في اليمن، والخبر، والرياض وغيرها من العمليات.

ولوضع تصور مساعد على فهم التطورات التي مر بها تنظيم القاعدة، لابد من الإشارة إلى ثلاثة أحداث تاريخية كان لها أثر كبير على التنظيم:

1. **الحدث الأول** هو الهجوم الذي تبنته القاعدة على برجي نيويورك، ومبنى البنتاجون، فلهذا الهجوم بغض النظر عن الخسائر التي سببها أهمية رمزية بالغة الخطورة.
2. **الحدث الثاني** احتلال أمريكا لأفغانستان، بعد أحداث أيلول 2001، وخوضها حرباً ضروساً مع طالبان التي احتضنت القاعدة، ورفضت تسليم بن لادن للأمريكان، **وصارت هناك مواجهة عسكرية مباشرة بين القاعدة والجيش الأمريكي، مر فيها التنظيم بتجربة قاسية جداً، فقد أحاط الموت به من كان جانب، وكان لهذه التجربة أثر كبير على القاعدة وأتباعها فيما بعد.**
3. **الحدث الثالث** احتلال العراق، والتعاون الأمريكي الإيراني هناك، والذي سبقه تعاون في احتلال أفغانستان وتسليم أمريكا العراق للبيت الشيعي، وتهميش السنة، وضرب الجامع الوطني العربي الإسلامي في الصميم، بتشريع المحاصصة الطائفية، وتدمير البنى التحتية للدولة العراقية، وتعزيز المناخ لنمو ميليشيات الموت، تحت عنوان نشر الديمقراطية ومكافحة الإرهاب في العالم.

لقد خاضت أمريكا حربها ضد القاعدة، بعد أحداث أيلول 2001، وعقدت تحالفات مع عدة دول، وسنت تشريعات، وأصدرت قوانين ضمن ما يسمى مكافحة الإرهاب. وفي خضم هذه الحرب بين أمريكا وحلفائها من طرف والقاعدة ومناصريها من طرف آخر، وما كان للأحداث التي ذكرناها سابقاً من أهمية، برز إلى السطح جدال على درجة كبيرة من الأهمية بين قادة ومنظري القاعدة، ويدور هذا الجدال حول جوهر فلسفة الجهاد التي اعتمدتها القاعدة، ومضمون هذا الجدال دار حول أمرين اثنين:

الأمر الأول: هو مراجعة فلسفة القاعدة في حربها المرتكزة على ضرب الرأس دون الذنب، بخلايا لها لا يعرف لها مكان، ليعود الحديث عن ضرب حلفاء أمريكا والغرب، تبعاً لتصنيف القاعدة. واستهداف قوى الأمن والجيش المحلي أكثر من التركيز على عمليات تنفذ في أمريكا أو أوروبا، بطريقة تشبه النهج القديم للحركات الإسلامية المسلحة، وعدم الاكتفاء بضرب الأمريكان والغربيين. وفتح معركة مع المجتمع الصامت أو المساند للحلفاء، بغض النظر عن استيعاب الأسباب الموضوعية لهذا الصمت أو تلك المساندة. ولعل أبرز مثال لما نشير إليه من استهداف المجتمع، ما حدث في العراق من استهداف للشيعة في الحسينيات أو المساجد، أو مجالس العزاء، والذي رافقه استهداف السنة من قبل ميليشيات الموت الشيعية، فعل ورد فعل لا يجدي معه الحديث عمن سبق إلى الاعتداء على حياة الأبرياء من الطرفين. فالكل شريك في الجريمة.

الأمر الثاني: هو بروز تيار في القاعدة يرى أنه من الواجب الشرعي السيطرة على بقعة جغرافية بعينها، وإعلان الدولة الإسلامية، وبناء نظام إسلامي يحكم بما أنزل الله سبحانه وتعالى، وأن في إعلانها بداية لحل كل مشاكل المسلمين في العالم، وهو أيضاً بداية لنهاية قوى الكفر العالمي، وسقوط للتحالف الصليبي اليهودي ضد العالم الإسلامي، وهذه الفكرة ليست

فكرة ابتدعها بعض قيادات الجهاد، بل هي أمر يفكر فيه الكثير من الإسلاميين، يأتي على رأسهم حزب التحرير الإسلامي، الذي لم يكتف بالدعوة إلى إعلان الخلافة بل وضع دستوراً للدولة مستمداً من الشريعة، لكنها كانت مجرد فكرة تدور في رؤوس أصحابها، أو تخطها أقلامهم في أدبيات أو برامج لبعض الأحزاب أو التنظيمات، لا يتجاوز الكلام عنها مرحلة الاجتماعات السرية، وما يكتب في محاضر تلك الاجتماعات، حيث يضر العلن، أو الحشود الجماهيرية التي يغلب عليها الاستعراض، حيث يمكن العلن. **لكن ما نتحدث عنه هنا هو السعي الجاد لمن فتح معركة مفتوحة مع العالم كله، وامتلك خبرة قتالية فريدة من نوعها، وقدرة على التنظيم هائلة، أربكت أرباب العقول، واستعداداً مميزاً للتضحية، وإدارة لشبكة تمويل معقدة.**

لم يكن لهذا التيار القدرة على أن يجد سبيله للخروج من رحم فلسفة القاعدة المعتمدة في حربها المفتوحة على خلايا موزعة هنا وهناك، يصعب الإمساك بها، أو القضاء عليها، وهذا يعود لعدة أسباب من أهمها وجود إمارة في أفغانستان تحتضن القيادة العالمية للتنظيم، وأيضاً الحضور القوي لشخصية أسامة بن لادن، وتحكمه بشبكة التمويل لنشاط القاعدة. ثم بعد فترة استطاع التيار المراجع لفلسفة القاعدة تحويل نشاط القاعدة العالمي إلى نشاط محلي، يسعى إلى ضرب وكلاء الغرب حيثما تيسر لهم الأمر، ولم يعد للقاعدة عمليات تذكر في أمريكا أو الغرب، وكان ثمرة هذا التحول نمط الحرب التي خاضتها القاعدة في العراق، فهي بالإضافة إلى دخولها حرب استنزاف مع الأمريكان والجيش العراقي، وهذا هو المعهود من سلوك القاعدة، أضافت إليه نوعاً جديداً من الحرب ضد المجتمع العراقي فصارت عملياتها الانتحارية، ومفخخاتها في الحسينيات والأسواق ومجالس العزاء بل حتى في المساجد تحصد أرواح المدنيين من الشيعة، فقط لأنهم شيعة، حتى وصل الأمر من البشاعة أن جعل أبا محمد المقدسي يوجه رسالة إلى الزرقاوي، بعدم جواز قتل عموم الشيعة. هذا من طرف ومن طرف آخر حصدت ميليشيات شيعية أرواح مدنيين من السنة فقط لأنهم سنة، وسقط العراق في أتون حرب طائفية بشعة، كان للقاعدة دور كبير في حدوثها، حرب لن ينتصر فيها طرف مهما طالت المدة. ثم تطور الأمر هناك مع إعلان أبي مصعب الزرقاوي قيام الدولة الإسلامية في العراق، والذي يدل فيما يدل على تطور هام في فكر القاعدة ومنهجها كما تحدثنا عنه آنفاً، وهو يدل أيضاً على بدء ضعف سيطرة القيادة العالمية على فروع التنظيم، ضعف لم يكن من السهولة أن يبدو واضحاً في وجود الشيخ أسامة بن لادن، لكنه اتسع بعد استلام أيمن الظواهري لقيادة التنظيم، كان تجلي هذا الضعف والذي يحمل أيضاً اختلافاً في الرؤية بارزاً مع الزرقاوي، لكنه صار صارخاً مع قيادة أبي بكر البغدادي لتنظيم العراق، وإعلانه للدولة الإسلامية في العراق والشام، **إعلان جعل الخلاف يطفو على السطح، ويوقع خلافاً حاداً لأول مرة بين منظري القاعدة وقياداتها، يجعل من تنظيم البغدادي تنظيماً خارجاً على القاعدة، فهو في حقيقته تنظيم ما بعد القاعدة.**

والقاعدة التي تمثلها جبهة النصرة وجدت نفسها في مواجهة مباشرة مع البغدادي، ودخلت معه في صراع فكري على الشرعية، ويدخل في هذا النطاق بيعة الجولاني لأيمن الظواهري، ثم المواجهة العسكرية بين الطرفين، في حالة عجز مطبق لتنظيم القاعدة العالمي، حيث لم يكن خافياً تفلت التنظيم من يد أيمن الظواهري، ولهذا الأمر تداعيات ستظهر في الأيام القادمة.

ويدخل أيضاً في هذا الصراع إعلان دولة الخلافة في العراق والشام، فهي حركة استباقية قام بها البغدادي لضرب تنظيم القاعدة ومنافسه في المنطقة أبو محمد الجولاني، كما أنه وجه بذلك ضربة لمعظم الحركات الإسلامية السلفية المقاتلة في سورية، وأحدث في جسدها شرخاً كبيراً، دفع العديد للانشقاق والانضمام للبغدادي، وسبب أيضاً إرباكاً عند منظري السلفية الجهادية، فضلاً عما سيؤمنه إعلان الخلافة من مناصرين من كل الدنيا، وخاصة من العجم الذين بدأ توافدهم إلى العراق والشام.

وأعتقد أن الحديث عن إعلان الخلافة، وبيعة أبي بكر البغدادي خليفة للمسلمين تنوع الحديث عنه، وذهب مذاهب شتى، وتنوع في نواحي مقاربته لها. وسأكتفي بالحديث هنا عن بعضها مع إدراك أهمية المقاربات الأخرى:

1. **المقاربة الشرعية:** وأصحاب هذه المقاربة من مشارب متنوعة، تشمل شرعيي الكتائب الإسلامية السلفية، وبعض منظري السلفية الجهادية، وشيوخ السلفية العلمية، وعلماء المدرسة الإسلامية العامة، وغيرهم، تهدف هذه المقاربة إلى إبطال الأصل الشرعي لإعلان الدولة، وتركز في معالجتها على تفنيد الأدلة الشرعية التي ساقها منظرو دولة الخلافة المزعومة، لجعل خلافتهم شرعية مستندة إلى كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويرفد ذلك الكثير من كلام الفقهاء في المسألة. ويدلي هنا كل بدلوه، فمنظرو دولة الخلافة يؤصلون لدولتهم، ويرد عليهم مخالفوهم بتأصيل آخر، ناهيك عما يشوب ذلك من اتهام كل طرف للآخر بضعف بضاعته الشرعية، وحظه الموفور من نقص العلم وسوء الفهم، ثم يأتي الرد ورد الرد، في سلسلة لا تنتهي.

ويكثر هنا لدى الفريقين الحديث عن مصطلحات عائمة، لا يضبطها ضابط، من مثل قولهم عن أهل الحل والعقد، واجتماع أمرهم على بيعة الخليفة، ناهيك عن الحديث المستفيض عن شروط انعقاد الخلافة، أو شروط الخليفة التي كان لها حظ من السبات العميق في بطون الكتب لقرون وقرون، أكثر من حظها في عالم الشهود.

والعجيب في الأمر أن كلا الطرفين يستند ويرجع إلى ذات المصادر، وينقل عن فقهاء بأعيانهم، مع اتفاق على كثير من المسائل التي هي أصل المشكلة، على رأسها إمارة صاحب الشوكة، فهم وإن اختلفوا في صحة الإعلان وشرعيته، وبطلان الخلافة أو وجوب بيعة معلنها، متفقون على ثقافة الغلبة، وإمارة المتغلب، بل إن الناظر في حال التجربة السياسية للأمة ليدرك من غير عناء أن معظم ما قيل في الأمر في كتب السياسة الشرعية لم يخرج عن كونه سجالاً دار بين الفقهاء ولم يجد له طريقاً إلى واقع الناس وحياتهم. ويدرك أيضاً أن واقعاً سياسياً يفرضه السيف، وأميراً يقهر الناس على إمارته، وبيعة لأمير يعلم من يرفضها أي مصير ينتظره إن هو خالف أو اعترض.

والنقطة الجوهرية الفاصلة في هذه المقاربة لمبطلي دعوى إعلان الخلافة، ومن قبلها إعلان الدولة الإسلامية في العراق والشام، هو الحديث عن الغلو وأهله، وخطر انتشار ثقافة الغلو على الأمة.

2. **المقاربة الأمنية:** وأصحاب هذه المقاربة وإن اختلفوا في توجهاتهم السياسية، أو انتمائهم الفكري، اتفقوا على اعتبار القاعدة صناعة أجهزة استخبارات إقليمية ودولية، وما إعلان الخلافة إلا حلقة من حلقات هذا العمل الاستخباراتي، الهدف منه تحقيق أجندات إقليمية ودولية، ومؤامرة على هذه الدولة أو تلك، وأصحاب هذه النظرية وإن اتفقوا على أن القاعدة صناعة ومؤامرة، لكنهم وقعوا في تناقضات صارخة، عند محاولتهم إسقاط نظريتهم على الواقع، بصورة أضعفت كثيراً نظريتهم في المسألة. وأعتقد أن اعتبار القاعدة وإعلان الخلافة عمل استخباراتي ومؤامرة تبسيط مخل لا يرقى إلى الدراسة الجادة، التي تأخذ بعين الاعتبار التطورات السياسية العميقة التي حدثت في المنطقة منذ عقود، وما أفرزته من رؤى وتصورات، في ظل فشل المشاريع الوطنية والقومية منذ عقود، وقضايا الاستبداد والقهر والفقر والجهل والأمية، وعودة الاحتلال والتطبيع مع العدو الصهيوني، ومحاربة التيارات الإسلامية التي انخرطت في العمل السياسي وقبلت باللعبة الديمقراطية، والانقلاب العسكري على نتائج صندوق الانتخابات، ومباركة الغرب والمؤسسات الديمقراطية والداعين لها لهذه الانقلابات، كما حدث في الجزائر سابقاً ومصر لاحقاً.

وما سبق ذكره من إضعاف نظرية اعتبار القاعدة وإعلان الخلافة مؤامرة، وعملاً أمنياً، لا ينفي قطعاً حقيقة واضحة لا تخفي نفسها من أن أجهزة استخبارات إقليمية ودولية اخترقت هذا التنظيم وهذه الخلافة، **وأن لها دوراً هاماً في توجيه نشاطها، أشبه ما يكون الأمر بالسواتر التي توضع في وجه سيل جارف، تكون من حبات المطر في منحدر جبلي، لتغير من مساره، أو توجهه إلى حيث يريد واضع السواتر.**

3. **المقاربة الثالثة:** هي مقاربة الولايات المتحدة الأمريكية والغرب، والتي لا تخرج عن نظريتهم العنصرية من اعتبار القاعدة ومن ثم الخلافة هي التعبير المكثف عن طبيعة المسلمين كل المسلمين، الكارهين للغرب ولقيمه الإنسانية، المعادين للحرية، والحضارة الغربية، الرافضين لدوحة الديمقراطية الأمريكية، ونموذجها الرائع في أفغانستان والعراق، وغير المراعين للمصالح الأمريكية والغربية، التي جعلت من دعم الحكومات الديكتاتورية في العالم العربي والإسلامي عملاً إنسانياً يجب احترامه، وغير المستشعرين لأمن إسرائيل وحقها في استباحة حقوق الشعب الفلسطيني. لذلك تشكل القاعدة خطراً على العالم الحر، ويجب على كل الدنيا أن تدخل مع الغرب وأمريكا في حربها على الإرهاب، دون أي محاولة صادقة لمعرفة أسباب ظهور القاعدة، ولا حتى مجرد الإشارة إلى الإرهاب العالمي الذي تمارسه أمريكا وربائبها في العالم. وفرضها مصطلحات مضللة عن الإرهاب تجعل حتى الدفاع عن الأرض ضد محتل نوعاً من الإرهاب، والفتك بالشعب الفلسطيني والعراقي والأفغاني هو تمكين للديمقراطية ونشر لحقوق الإنسان.

وأحب أن أشير هنا بعد هذه المقاربات إلى ناحية جديرة بالاهتمام، وهي أن الشباب المنخرط في هذه التجارب البائسة يجمع بين حقيقتين، الأولى منهما هي أنه ضحية لعوامل موضوعية، وظروف سياسية واجتماعية، لها بعد تاريخي، والثانية هي أن هذا الشباب في رحلته باحثاً عن حل لمشكلته، وقع أسير أفكار وأوهام تسربت إلى وجدانه في لحظة تاريخية عليلة، فحولته إلى كائن عابث، غير آبه ببراءة ضحاياه، ويستسهل حصد الأرواح، وينتشي لرؤية الدماء والأشلاء.

وزبدة القول إن القاعدة وما بعد القاعدة ودولة الخلافة وما ستأتي به الأيام كل ذلك نتاج طبيعي، ومولود شرعي، لواقع مريض. إن القاعدة تعبير ثقافي عن حالة انتحار شرعي لفئة من الشباب الجامح المتمرد على واقع مزرٍ، شباب سحقته آلة الاستبداد الوطني، وتؤرقه ذكريات مرعبة عن تجربته في السجون والمعتقلات، وما فيها من امتهان لكرامة الإنسان، فلا يعرف من الحرية إلا الاسم، ولا من العدالة إلا الرسم، يرى نهب المال العام دون وجود لحساب أو رقيب، مزقته حالة الفشل المتواصل لمشاريع الأمة، وانهيار منظومة القيم السياسية لدى النخب والأحزاب والحكام، وصدمته محاولات حثيثة لتغريب الأمة عن هويتها الإسلامية، كان فرسان هذه المحاولات علمانيون متطرفون، لم يجدوا غضاضة من وضع يدهم بيد الغرب تارة، وبيد المستبدين تارة أخرى، وأزرى به نفاق العالم الحر بمؤسساته الدولية والديمقراطية، وفجور إعلامه الكاذب.

ويضاف إلى ذلك كله ثقافة تجربة فريدة خاضها العرب الأفغان في عالم أفغانستان الساحر، وعركتها تجربة العراق، ومهد لها إرث تاريخي مكبل، وتربة فقهية مناسبة فتحولت هذه الثقافة إلى تميمة يجد فيها كثير من الشباب القلق المضطرب علاجاً ناجعاً. هذا كله أيقظ العالم على حقيقة صادمة اسمها تنظيم القاعدة، وبنت شرعية لها هي دولة الخلافة في العراق والشام، والله أعلم أي حفيد ننتظر.